الفصل السابع والستون بعد المئة

آراء الشعراء الجاهليين

والشعر الجاهلي مادة مهمة تعيننا في الوقوف على آراء الجاهليين ، على الرغم من كون أكثره قد ورد في أمور لا صلة مباشرة لها بالرأي ، أعني بالتفكير في خلق الكون وفي الانسان نفسه ، لِمَ جاء ولِمَ يموت ، وما هي الغاية من ظهوره على هذه الأرض ، وعن الخلق والخالق ، من إثبات أو عـدم ، وعن النظم وأصول الحكم والمجتمع والمعرفة والثقافة وما شاكل ذلك من أمور لها صلة بالتأمل والتفلسف . ومع ذلك فإن في هذا الشعر المذكور ، ما يكفي لاستنباط شيء منه عن الرأي عند الجاهليين .

لقد حمل خلو الشعر الجاهلي من العاطفة الدينية ، بعض المستشرقين على الحكم بأن الجاهليين لم يكونوا يملكون حساً دينياً ، وان دينهم سنتهم ، وسنتهم ما ألفوه عن آبائهم وأجدادهم وأعراف قبيلتهم ، وهي أعراف ورثوها وحافظوا عليها ، محافظتهم على حياتهم ، وقاوموا كل من كان يخرج عليها أو يتطاول عليها. ونجد الشعراء يمجدونها ويذكرونها على حين لا نشعر بوجود حس ديني في شعرهم ، اللهم إلا في شعر عدد قليل من الشعراء[1] .

والشعر الجاهلي خلو من الشعر الديني الذي يجب أن ينظم في المناسبات الدينية، مثل الحج . ولما كان الحج من المناسبـات المؤثرة المثيرة ، التي تجمع الناس ،

---

١ Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 25.

فتثير في الشاعر شعوراً بروعة المناسبة وبروعة الاجتماع ، فلا بد وأن ينظم الشعراء شعراً فيه ، لإنشاده على المتجمعين حول الصنم ، غير أننا لا نملك أي شعر قيل فيه ولا في المناسبات الدينية المماثلة التي تدفع الإنسان إلى إظهار شعوره فيها. وهو أمر يلفت اليه النظر حقاً ، ويجعلنا نفكر في الأسباب التي أدت الى عدم ظهور الروح الدينية في هذا الشعر ، هل هي طبيعة العربي في عدم اهتمامه بأمور الدين أم هي بسبب كره الإسلام رواية وحفظ ذلك الشعر الوثني !

لقد نسب بعض المستشرقين خلو الشعر الجاهلي من الوثنية ، الى ترك المسلمين تعمداً رواية ذلك الشعر ، بسبب دخولهم في الإسلام واجتثاث دين الله لمعالم الشرك فلم يجد المسلم أن من الهيّن عليه ، حفظ شعر فيه تنويه بما أبطله وحرمه كتاب الله ، فرموا منه ما كان ثقيل الوثنية ، وهذبوا منه ما كان خفيف الوزن ، بأن رفعوا أسماء الأصنام ، وأحلوا محلها اسم الله إن ناسب الإسم المعنى ، أو شذبوا فيه وأضافوا شيئاً عليه لإزالة معالم الوثنيـة منه . لأن من الصعب تصور إعراض الشاعر الجاهلي عن ذكر أصنامه في شعره ، بينما هو يتوسل ويتقرب اليها، وينذر لها. فالوثني مهما كان رقيق الدين ، بعيداً عن التفكير فيه ، فإنه لا بد وأن يلجأ اليه ساعـة الشدة وأيام المحن ، حيث يبحث عمن يساعده للخروج من محنته ، شأنـه في ذلك شأن أي إنسان آخر ، حين تنزل به النوازل ، فيلجأ حينئذ الى إلهه أو آلهته وأصنامه والى القوى الطبيعية يستمد منها المساعدة والعون[1] .

وأنا لا أستبعد احتمال موت هذا النوع من الشعر الوثني بسبب الاسلام ، فليس من المعقول إبقاء الاسلام له ، وفيه ما فيه من أمر الأصنام والوثنية المناهضة لدين الله . وعندي ان الجاهلي ، مهما قيل عنه من إعراضه عن الدين ومن عدم احتفاله به ، ومن بعده عنه ، إلا انه كان مع ذلك شديد التمسك به في الأمور التي تمس حياته ، مثل التوسل الى الآلهة بأن تبارك في إبله ، وأن تمنحه الغيث ، وأن تشفيه من مرضه ، الى غير ذلك من أمور ، ذات صلة بالمصالح الشخصية للانسان . ودليل ذلك ، هو ان معظم ما نجده في نصوص المسنـد من كتابات ، خلدت أسماء الأصنام ، انما دونت فيها الأسماء لمثل هذه الأمور . فإذا كان الأمر كذلك فنحن لا نستطيع استثناء الشعر الجاهلي من ذكر الأصنام في أمثال هذه المناسبات

---

١ Goldziher, History of Classical Arabic Poetry, p. 25.

على الأقل ، فالشاعر مثل أي انسان آخر ، لا بد وأن يشعر في يوم ما بعجزه وبحاجته الى مخاطبة أربابه وأن يتوسل اليها لتنفعه أو لتمنّ عليه بالصحة والعافية وبالمال ، يتوسل اليها شعراً ، فيمدحها ويشيد بذكرها ، ويسترضيها ، اقتداء بفعله مع الملوك وسادات القبائل ، حيث يكيل المدح لهم شعراً لأنهم أحسنوا اليه .

وقد ورد اسم (الله) في الشعر وفي النثر الجاهليين ، على نحو ما ذكرت في الجزء السادس من هذا الكتاب . لقد ذكرتُ هناك أن غالبية المستشرقين شكت في صحة ورود اسم الله في هذا الشعر ، ورأت أن رواة الشعر وحملته في الإسلام هم الذين أدخلوا اسم الجلالة في هذا الشعر ، وذلك أنهم حذفوا منه أسماء الأصنام ، وأحلّوا محلها اسم الله . فما جاء فيه اسم (اللات) حل محله اسم الله وهكذا[1] . وذلك لاعتقادهم أن الوثنيين لم يكونوا يؤمنون بالله ، فلا يعقل ورود اسمه في شعرهم . وهو رأي لا أقرهم عليه ، لأن الجاهليين كانوا يؤمنون بالله ، ولم يكونوا ينكرون وجوده أبداً ، بدليل ما نجده في القرآن من تأكيد بأنهم كانوا يؤمنون به ، وانهم كانوا إذا سألهم سائل من خلق الكون ليقولون الله . وقد ذكرت في حينه كل الآيات الواردة في القرآن الكريم عن هذا الموضوع[2] . وبينت أن أهل مكة وغيرهم من العرب الشماليين ، كانوا يؤمنون بإلَه واحد هو الله ، ولم يكن بينهم وبين الإسلام خلاف فيه ، وخلافهم معه هو في تقربهم الى الأصنام والأوثان ، لتشفع لهم ، بزعمهم ، الى الله زلفى . مع أنها أجسام جامدة وأحجار لا حياة فيها ، فمن هنا حمل الإسلام عليها ، واعتبرها شركاً بالله ، لأنهم بتقربهم اليها يكونون قد أشركوها مع الله في ألوهيته ، وهذا هو الكفر والضلال في نظر الإسلام . ولذلك أمر بالابتعاد عنها وبنبذها وبنبذ كل ما يتصل بها من عبادة ، كما أمر بطمس الصور ، ومحوها لأنها من دلائل هذه الوثنية ومن معالمها .

وقريش نفسها لم تنكر على الرسول تعبده لله ، ولم تمنعه من الصلاة في بيت الله ، ومن ذكره وحمده له ، لأنها لم تختلف معه في عبادته ، وإنما اختلفت معه ، فيما هو دون الله من أصنام وأوثان ، وذلك حين عابها وسفه أحلامهم بتقربهم اليها وهي جامدة مخلوقة مصنوعة ، عندئذ هاجت وماجت واشتكت الى أعمام رسول

---

١ (ص ١٠٢ وما بعدها) .

٢ (ص ١٠٣ وما بعدها) .

الله والى ذوي رحمه ، ومن هنـــا كان عناد قريش وكفرها وعداوتها للرسول . كما نص على ذلك صراحة في القرآن وفي كتب السير[1] . وأخذت تؤذيه وتؤذي المسلمين كلما ازداد هجوم الإسلام على الأصنام والأوثان .

ويشبه هذا النزاع ما وقع في النصرانية من هجوم على تقديس التماثيل والصور التي تمثل (الثالوث) ، و (المسيح) ، حيث اعتبرها البعض شركاً ، مما سبب وقوع شقاق في الكنيسة . فقد اعتبر بعض رجال الدين الـ (ايقونات) شركاً ، ولذلك حاربوا التماثيل والتصاوير . وقد كانت هذه المشكلة قد بدأت في الكنيسة نتيجة الصراع الذي وقع بين رجال الدين حول طبيعة المسيح .

ولو أخذنا بصدق ما نسب الى الجاهليين من شعر ورد فيه اسم الله ، وجب إدخال عدد من شعراء الجاهلية في المتألهين ، القائلين بوجود إلـه ، هو (الله) . ففي شعر ينسب الى (عروة بن الورد) ، نجد اسم الله مذكوراً فيه ، إذ يقول:

فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسارٍ أو تموت فتعذرا[2]

ويجب عدّ (امرىء القيس) من المتألهين أيضاً ، فقد زعموا ان العرب كانت لا تعدّ الشاعر فحلاً ، حتى يأتي ببعض الحكمة في شعره ، فلما قال :

والله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل

عدّوه فحلاً[3] . وهكذا أدخلوه بهذه الحكمة في جملة الفحول .

وقد ورد اسم الله في معلقته ، في البيت :

فقالت يمين اللهِ ما لك حيلة وما إن أرى عنك الغواية تنجلي[4]

ونجده يحلف بالله ، فيقول : « يمين الله » ، و « حلفت لها بالله » ، وتقول

---

١ ابن هشام ، سيرة (١/١٧٠) ، (حاشية على الروض)

٢ ديوان عروة (١٩١)

٣ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٦١)

٤ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٨٢)

له صاحبته : « سباك الله »[1] ، مما يدل على انه كان مؤمناً معتقداً به . ونجده يذكر الله في أشعاره الأخرى[2] .

وزعم أهل الأخبار ان (الأفوه بن مالك) الأودي ، كان من المتألهين كذلك، وانه لما شعر بدنو أجله ، أوصى قومه : مذحج ، بتقوى الله ، وصلة الأرحام ، وحسن التعزي عن الدنيا بالصبر[3] .

وورد في معلقة (عبيد بن الأبرص) قوله :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب[4]

ويجب إدخال زهير في جملة المتألهين أيضاً ، فقد ذكر انه كان يتأله ويتعفف في شعره ويؤمن بالبعث ، ونسبوا له قوله :

فلا تكتمنّ الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم[5]

وهو يقسم في معلقته بالبيت ، فيقول :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم[6]

فهو مؤمن بالله العلاّم بما في نفوس الناس ، فلا تخفى عليه خافية ، ومهما حاول الانسان كتمان سره في قرارة نفسه ، فإن الله لا يخفى عليه سره ، ولا يفوته أبداً[7] .

وتنسب لزهير قصيدة مطلعها :

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لي ان النـاس تفنى نفوسهم وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٤١)
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٧٥)
٣ المزهر (١/١٦٤)
٤ رسالة الغفران (١٨٦)
٥ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٢٨ وما بعدها ، ١١٦)
٦ الشنقيطي ، شرح المعلقات (١١٤)
٧ الخزانة (١/٤٣٦ وما بعدها)

وهي قصيدة ذكر فيها أنه عاش أكثر من مائة سنة ، ثم ذكر الله ، وانه حق ، وأنه كان مؤمناً به ، وأن أيامنا معدودات ، ولا يدوم ويبقى إلا الله الذي أهلك تبعاً ولقمان بن عاد وعاديا ، وأهلك ذا القرنين ، وفرعون ؛ ثم ذكر النعمان، وكيف حكم، ثم جاء يوم غير كل شيء. وقد قال الأصمعي ، أنها ليست لزهير، ويقال هي لصرمة الأنصاري، ولا تشبه كلام زهير[1]. وربما كانت من المصنوعات، صنعها من صنع من أمثالها من شعر الوعظ والإرشاد ، فنسبه الى الجاهليين .

ونجد (أبا طالب) يقسم بالله في شعره ، فيقول في قصيدة له ، يخاطب بها الرسول ، انك جئت بدين سمح، هو من خير أديان البرية ديناً ، ولولا الملامة ، أو حذار سبّة ، لوجدتني سمحاً بذاك مبينا[2] :

وروي ان (لبيد بن ربيعة) الشاعر المخضرم ، كان من المتألهين في الجاهلية وانه نظم قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكـــل نعيم لا محالة زائل

قبل الاسلام ، أو عند ظهوره . وان الرسول قال : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل[3] .

وروي ان له أبياناً تشير الى التوحيد والصلاح ، والخير ، هي :

إن تقوى ربنا خيرُ نَفَل وبـــاذن الله ريثي وعجل

وقوله :

أحمد الله فلا ندّ له بيديه الخير ، ما شاء فعل

وقوله :

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ، ومن شاء أضل[4]

---

١ الخزانة (٣/٥٨٨ وما بعدها) ، (بولاق)

٢ لن يصلوا اليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
السيوطي ، شرح شواهد (٢/٦٨٦ وما بعدها)

٣ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٣٥ ، ٣٨)

٤ رسالة الغفران (٢٦٧)

و (النابغة) الذبياني من المتألهين كذلك ، فقد نسبوا له شعراً ، ذكر أنه اعترف فيه بوجود الله ، إذ قال :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب[1]

ونجده في معلقته يقول :

إلا سليمان إذ قال الإلـه له قم في البريّة فاحددها عن الفند[2]

ونراه يذكر مكة في شعره :

والمؤمن العائذات الطير تمسحها ركبان مكة بين الغيل والسعد[3]

وورد اسم الله في قوله :

أبى اللهُ : إلا عدله ووفاءه فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

أي ما يريد الله إلاّ عدل النعمان بن المنذر ، وإلا وفاءه ، فلا يدعه أن يجور ولا أن يغدر ، فلا النكر يعرفه النعمان ، ولا الجميل يضيع عنده[4] . ومعنى هذا أن النابغة كان يرى أن الله هو الذي يقدر الأمور للناس ، وأن الإنسان مسير بأمر الله .

و (الحارث بن حلزة) اليشكري من هذا الفريق كذلك ، لقوله :

فهداهم بالأسودين وأمر اللهِ بلغٌ تشقى بـه الأشقياء[5]

ولقوله :

وفعلنا بهم كما علم الله وما إن للحائنين دماء[6]

---

١ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٦٤)
٢ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٢٠٨)
٣ كذلك (ص ٢١٣)
٤ الخزانة (٤٦٨/٢) ، (هارون)
٥ الشنقيطي ، شرح المعلقات (١٧٧)
٦ الشنقيطي ، شرح المعلقات (١٧٩)

واذا صدقنا بمعلقة (عبيد بن الأبرص) ، وأخذنا بصدق الأبيات :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك علام ما أخفت القلوب[1]

بل يجب عدّه من الأحناف الموحدين ، الذين آمنوا بإلـه واحد لا شريك له. وهو في نظري شعر اسلامي ، ويبعد أن يكون من نظم ومن نفس شاعر جاهلي. وقد ذهب (ابن الأعرابي) ، الى ان البيت الأول هو لشاعر آخر ، هو : يزيد بن ضبّة الثقفي[2] .

و (عمرو بن الإطنابة) سيد الخزرج في أيامه من هذا الرعيل الذي ذكر اسم الله في شعره ، إذ ذكره بقوله :

إني من القوم الذين اذا انتدوا بدأوا بحق الله ثم النائل

وانتدوا : جلسوا في النادي . فهو يبدأ بذكر الله ، وبحقه ، اذا ما جلس في النادي[3] .

وورد اسم (الله) في شعر خداش بن زهير :

تقوه أيهـا الفتيان إنـي رأيتُ اللهَ قد غلب الجدودا[4]

ونجد ذكر الله في شعر (صريم بن معشر بن ذهل) التغلبي ، وكان قد لقي كاهناً ، فسأله عن موته ، فقال له : انك تموت في موضع يقال له (إلاهة) ، فمكث زماناً ثم سار الى الشام في تجارة ثم رجع في ركب من (بني تغلب) ، فضلّوا الطريق ، ثم أتوا موضعاً اسمه (إلاهة) قارة بالسماوة ، فلدغته حية ، ثم تذكر قول الكاهن ، فقال :

---

١ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٥٤١ وما بعدها) ، البيت (١٨ وما بعده) من المعلقة ، الحيوان (٣/٨٩) الشنقيطي ، شرح المعلقات (٢٢١) ، السيوطي ، شرح الشواهد (١/٢٦٦)
٢ الشنقيطي (٢٢١) ، الخطيب التبريزي ، شرح القصائد العشر (٥٤١) .
٣ المرزباني ، معجم (٨) ، (فراج)
٤ العمدة (٢/٢٧١)

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي اذا هو لم يجعل له الله واقيا
كفى حزناً أن يرحل الحي غدوة وأصبح في أعلى الإلاهة ثاويا[1]

وهو شعر إن صح انه له ، دل على ان صاحبه كان يؤمن بأن لكل انسان أجل ، وانه اذا جاء الأجل ، فلا مردّ له ، وانه لا مرد لقضاء الله وقدره .

وفي شعر (قيس بن الحدادية) ، إيمان بالله ، وأن الله هو الذي يقدر الأمور ، إذ يقول :

فقلت لها والله يدري مسافرٌ اذا أضمرته الأرض ما الله صانع

ويروى :

فقلت لها والله ما من مسافر يحيط بعلم الله ما الله صانع[2]

وفي شعر (النمر بن تولب) ، وهو من المخضرمين قوله :

سلام الإلـه وريحانه ورحمته وسماءٌ درر

و (العرب تقول : « سبحان الله وريحانه ، أي : واسترزاقه »[3] .

ونجد في شعر للأعشى أنه كان يؤمن بالرحمن ، اذ يقول :

وما جعل الرحمن بيتك في العُلى بأجياد غَربي الصفا والمحرم[4]

ويقول :

وإن تقى الرحمن لا شيء مثله فصبراً إذا تلقى السحاق الغراثيا

ثم يبين بعده إيمانه بإلـه واحد لا شريك له ، اذ يقول :

وربك لا تشرك به ان شركه يحط من الخيرات تلك البواقيا

---

١ الخزانة (٤/٤٦٠) ، (بولاق)
٢ المرزباني ، معجم (٢٠٢)
٣ انجمان في تشبيهات القران (٣٨٣)
٤ القصيدة رقم ١٥ ، البيت ٣٦ ، ديوانه (١٢٣)

بل الله فاعبد لا شريك لوجهه يكن لك فيما تكدح اليوم راعيا
وإياك والميتات لا تقربنهـا كفى بكلام الله عن ذاك ناهيا[1]

ونجده في القصيدة رقم (١٥) التي فيها البيت الأول ، يحلف ، برب الراقصات الى منى ، ثم يذكر (ماء زمزم) ، أي مكة ، بينما نجده في القصيدة الثانيـة مؤمن بالرحمن ، مؤله له ، موحد ، لا يشرك بربه أحداً . وهو شعر روي عن (أبي عمرو الشيباني) ، ركيك ضعيف ، موضوع عليه[2] .

وروي ان (الشنفرى) كان ممن آمن بالرحمن ، وذكره في شعره ، إذ قال:

لقد لطمت تلك الفتاة هجينها ألا بتر الرحمن ربي يمينها

ولكنه بيت يشك في صحته ، ولم ينقله الثقات[3] .

وقد سبق لي أن تحدثت في الجزء السادس من هذا الكتاب عن عبادة الرحمن، وقلت ان قريشاً قالت للرسول لما نزل الوحي بـ « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن» : « أتدرون ما الرحمن الذي يذكره محمد ، هو كاهن باليمامة »[4] ، وانها قالت : « دق فوك ، انما تذكر مسيلمة رحمن اليمامة » ، وكان قد تسمى بالرحمن قبـل مولد عبدالله والد الرسول[5] .

وقد زعم أهل الأخبار ان الأعشى كان قدرياً ، وانه أخذ رأيه هذا من أهل الحيرة . واستشهدوا على رأيه بالقدر بقوله :

استأثر اللهُ بالوفاء وبالعدل وولى الملامة الرجلا[6]

---

١ القصيدة رقم ٦٦ ، البيت رقم ٨ وما بعده ، ديوانه (ص ٣٢٩)
٢ ديوانه (٣٢٨)
٣ الاشتقاق (٣٧)
٤ الاشتقاق (٣٧)
٥ الحيوان (٨٩/٤) ، تفسير الطبري (٥٧/١) ، مغازي ، الواقدي (٨٢/١) ، ابن كثير ، البداية (٣٢٦/٦) ، تابع العروس (٣٠٧/٨) ، (رحم) ، الروض الانف (٣٤٠/٢) ، ابن سعد ، طبقات (ج ١ ، ق ١ ، ص ١٠٩)
٦ راجع ديوان الاعشى (١٥٥)، امالي المرتضى (٢١/١) ، (دار الكتاب العربي) ، شرح ديوان الاعشى (٢٣٣) ، (القصيدة رقم ٣٥) ، وورد (وبالحمد) بدلا من « وبالعدل » ، الاغاني (٧٦/٨)

وأبي الشريف (المرتضى) إلا أن يجعله على مذاهب أهل العدل[1] ، أي على مثل ما ذهب اليه (المعتزلة) والشيعة الإمامية الاثني عشرية في الاسلام . وعلل بعض أهل الأخبار سبب تحول الأعشى الى القدرية ، انه كان يأتي أهل الحيرة في الجاهلية ، وكانوا نصارى ، يأتيهم يشتري منهم الخمر ، فلقنوه ذلك[2] . ورد في كتاب (الأغاني) : « قال لي يحيى بن مَنّى راوية الأعشى وكان نصرانياً عبادياً ، وكان معمراً ، قال : كان الأعشى قدرياً ، وكان لبيد مثبتاً . قال لبيد :

من هداه سبل الخير اهتدى ناعمَ البال ومن شاء أضل

وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالـ ـعدل وولى الملامة الرجلا

قلت : فمن أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال : من قبل العباديين نصارى الحيرة، وكان يأتيهم يشتري منهم الخمر ، فلقنوه ذلك »[3].

والبيت المذكور هو من قصيدة مدح فيها (سلامة ذا فائش) مطلعها :

إن مَحَلاً وإن مرتحلا وان في السفر ما مضى مهلا
استأثر اللهُ بالوفاء وبالـ ـعدل وولى الملامة الرجلا[4]

شك في صحتها (ابن قتيبة) ، فقال : « وهذا الشعر منحول »[5]، والصنعة في الواقع بينة على القصيدة ، واذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن يكون القدرى صاحبها ، ذلك الرجل الذي نحلها الأعشى ، لا الشاعر الأعشى .

ويذكر أهل الأخبار أن الأعشى كان ممن أقر بالملكين الكاتبين في شعره ، إذ يقول :

---

١ أمالي المرتضى (٢١/١) ، (دار الكتاب العربي)
٢ الاغاني (٧٦/٨)
٣ الاغاني (٧٩/٨)
٤ « وبالحمد » ، ديوان الاعشى ، القصيدة رقم (٣٥) ، (ص ٢٣٣) ، ابن قتيبة ، الشعر (١٥/١)
٥ ابن قتيبة ، الشعر (١٥/١)

فــلا تحسبني كافراً لك نعمة على شاهدي يا شاهد الله ، فاشهد

وشاهدي ، يعني لساني ، ويا شاهد الله ، يريد الملك الموكل بــه . وكان هذا من ايمان العرب بالملكين . وقد نسبوا هذه العقيدة الى بقية من دين اسماعيل[1]، وزعموا أن العرب ممن أقام على دين اسماعيل ، إذا حلفت تقول : وحق الملكين، فكان الأعشى ممن أقام على دين اسماعيل والقول بالأنبياء . « والأعشى ممن اعتزل وقال بالعدل في الجاهلية »[2] .

ونسب الى (لبيد) العكس ، أي القول بالجبر ، واستدل من نسبه الى الجبر ، بقوله :

إنّ تقوى ربنا خير نفل وباذن الله رَيْثي والعجل
أحمد اللهَ فلا نــد له بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل[3]

وقد قال بعض العلماء : ان هذه الأبيات لا تشير حتمــاً الى مذهب لبيد في الجبر ، وانها لا تكون سبباً في نسبة الجبر اليه ، وقد تأولها ، وأوجد لها مخارج في ابعاد القول بالجبر عنــه . ثم قال : « اللهــم إلا أن يكون مذهب لبيد في الاجبار معروفاً بغير هذه الأبيات ، فلا يتأول له هذا التأويل ، بل يحمل عــلى مراده على موافقة المعروف من مذهبه »[4] .

وينسب الى (زهير بن أبي سلمى) قوله :

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم[5]

---

١ الشعر والشعراء (١٨٦/١) ، الشنقيطي ،شرح المعلقات (٦١)
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٤١/١)
٣ أمالي المرتضى (٢١/١) ، (دار الكتاب العربي) ، ديوان لبيــد (١٧٤) ، (رقم ٢٦) ، وورد :
من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومــن شاء أضل
الاغاني (٧٦/٨) ، ديوان لبيد (١٣) ، (رقم ٣٩) ، رسالة الغفران (٢٦٧)
٤ الخزانة (٣٠/٢) ، (بولاق) ، الامالي للمرتضى (٢١/١)
٥ ديوان زهير (١٨)

وذكر انه كان يتأله ويتعفف في شعره، ويدل شعره المذكور على ايمانه بالبعث وبالحساب وبالثواب وبالعقاب[1] .

ومن رأي الجاهليين ان الموت مكتوب على جبين الانسان ، ولا بد له من أن يواجهه في يوم محتوم مكتوب عليه . ومن لم يمت عبطة ، مات هرماً . وفي ذلك يقول أمية :

من لم يمتْ عبطة يمت هرماً وللموت كأس ، والمرء ذائقها[2]

ويقول الأعشى :

ولو كنتَ في جب ثمانين قامةً رُقيتَ أسباب السماء بسلم[3]

ونجد رأي الجاهليين في الروح واضحاً في أشعارهم وفي أقوالهم عن الموت ، فالموت — كما سبق أن تحدثت عنه — في نظرهم مفارقة الروح للجسد ، فإذا فارقته صارت (هامة) ترفرف فوق قبر صاحبها . هذا (عروة بن الورد) ، يذكر الموت ، ثم يذكر ما سيقوله الناس عنه ، بقوله :

أحاديث تبقى ، والفتى غيرُ خالد اذا هو أمسى هامة فوق صيّر[4]

وقد أشير الى (العتائر) التي تقدم في (رجب) ، في شعر (طرفة) :

عنتْ باطلاً وظلماً كما تعـ ـتر عن حجرة الرّبيض الظباء[5]

وكان الرجل من العرب ينذر نذراً على شائه اذا بلغت مائة أن يذبح عن كل عشرة منها شاة في رجب،وكانت تسمى تلك الذبائح الرجبية ، وهي العتائر .

---

١ الشعر والشعراء (٧٨/١) ، الخزانة (٣٧٦/١) ، (بولاق)

٢ أمالي المرتضي (٥٣٣/١)

٣ رسالة الغفران (٥٧١)

٤ ديوانه (٦٤) ، « قال أبو عمرو : بالهزر الف صير ، يعني قبورا من قبور أهل الجاهلية » ، اللسان (٤٧٧/٤) ، (صير) ، تاج العروس (٣٤٦/٣) ، (صير)

٥ مجالس العلماء (١٨ وما بعدها) ، شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٤٦٣ وما بعدها)

وكان الرجل منهم ربما بخل بشاته فيصيد ظباءً فيذبحها عن غنمه في رجب ليوفي نذره[1] .

ومن الشعراء من غلبت عليهم نزعة التبرم من هذه الدنيـا ، وذكر الموت ، والاتعاظ به ، وعلى رأس هؤلاء (عدي بن زيد) العبادي ، النصراني ، وهو خير من يمثل هذه النزعة التصوفية ، التي ترى أن اللذة لا تدوم ، وأن السعادة موقتة زائلة ، وان على الانسان أن يتعظ بمن عاش قبله من الملوك العظام، والأمم القوية ، وممن نزع هذا المنزع وان كان دون (عدي) بكثير (الأسود بن يعفر)، في قوله :

ماذا أؤمل بعـد آل محرق تركوا منازلهم ، وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشُرفات من سنداد

الى أن قال :

أين الذين بنوا فطال بناؤهم وتمتعوا بالأهـل والأولاد
فإذا النعيم وكل ما يلهى به يوماً يصير الى بلى ونفـاد

وآخرها :

فإذا وذلك لا نفـاد لذكره والدهر يعقب صالحاً بفساد[2]

غير ان هذه النزعة ، لم تكن ناتجة عن رأي وعن فلسفة ودراسة تأمل لهذه الحياة ، وانما هي نزعة نجدها عند من أصيب بنكبة وعند من حلت به مصيبة ، وعند المسنين الذين غلب العمر عليهم ، فجعلهم حطاماً وكومة عظام،لا يستطيعون الوقوف على أرجلهم ، فهم متعبون لا يجدون من يصغي اليهـم أو من يعطف عليهم ، أو من يساعدهم في الخروج من المآزق التي وقعوا فيها ، فتبرموا لذلك من الحياة ، وأخذوا يذمونها ، وانما هم يذمونها لأنهم صاروا في حال لا يتمكنون

---

١ مجالس العلماء (٢٠)
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١٣٨/١) ، (٥٥٢/٢ وما بعدها) ، المفضليات (٢١٦) الاغاني (١٢٩/١١) ، ابن سلام (١١٩) ، الشعر والشعراء (١٧٦/١ وما بعدها) الجمان في تشبيهات القران (٣٠٨)

فيها من التلذذ بها ومن التمتع بنعم الحياة التي هي هي لا تتغير وانما الذي يتغير هو الشخص ، الذي كبر وعجز فصار يذم الدنيا ، لأنه لم يعد قادراً على فعل ما كان يفعله أيام كان شاباً قوياً يحب الدنيا ، فتقبل الدنيا عليه .

ونجد في شعر ينسب للأعشى إشارة الى التطير ، إذ يقول :

ما تعيف اليوم في الطير الروح من غراب البين أو تيس برح[1]

وكان (النابغة) الذبياني من المتطيرين . خرج مرة مع (زبان بن منظور) الفزاري غازياً ، فسقطت عليه جرادة ، فتطير منها ، فرجع من الغزو ، ومضى زبان فظفر وغنم ، فقال :

تعلم أنه لا طيرَ إلا على متطير ، وهي الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحايين ، وباطله كثير

وقال خرز بن لوذان ، ويقال مرقش السدوسي :

لا يمنعنك من بغـا ء الخير تعقاد التمائم
لا ، والتشاؤمُ بالعطا س ، ولا التيامن بالمقاسم
ولقد غدوت وكنتُ لا أغدو على واق وحاتم
واذا الأشائم كالأيـا من ، والأيامن كالأشائم
قد خط ذلك في الزبو ر الأوليـات القدائم[2]

وفي شعر (عبيد بن الأبرص) القائل :

نبئت أن بني جديلة أوعبوا نفراء من سلمى لنا وتكتّبوا
ولقد جرى لهم فـلم يتعيفوا تيسٌ قعيد كالهراوة أعضب
وأبو الفراخ على خشاش هشيمة متنكب إبط الشمائل ينعب
طُعِنوا بمرّان الوشيج فما ترى خلف الأسنة غير عرق يشجب
وتبدلوا اليعبوب بعـد إلههم صنماً ففرّوا يا جديل وأعذبوا[3]

---

١ العمدة (٢/٢٦٠)
٢ العمدة (٢/٢٦١ وما بعدها)
٣ الحيوان (٣/١٠٠) ، العمدة (٢/٢٠٢) ، الخزانة (٣/٢٥٦)

كـــلام عن العيافة ، فأشار الى تيس قعيد من الظباء ، والقعيد الذي يأتي من الخلف ، والأعضب المكسور القرن ، وهو مما يتشاءم بـه العرب . وأبو القراخ عني به الغراب ، واليعبوب صنم لجديلة ، وكان لهم صنم أخذته منهم بنو أسد، رهط (عبيد بن الأبرص) ، فتبدلوا اليعبوب بدله .

وقد أشير الى التشاؤم بالغراب في شعر ينسب لعلقمة الفحل :

ومن تعرض للغربان يزجرها عـلى سلامته لا بد مشؤوم[1]

ونجد في شعر (أبـي ذؤيب) الهذلي ، وهو من الشعراء المخضرمين ، اشارة الى تشاؤم العرب بطير الشمال ، إذ يقول :

زجرتُ لها طيرَ الشمال فإن تكـن هواك الذي تهوى يُصبك اجتنابها[2]

والعرب تتشام من (طير الشّمال) ، على نحو ما تحدثت عن ذلك في الجزء السادس من هذا الكتاب .

وكان (خزز بن لوذان) السدوسي على مذهب من ينكر الطيرة ولا يعتقـد بها ، وينسب اليه قوله :

لا يمنعنك من بُغـــا ء الخـير تعقاد التمائم
ولقد غدوت وكنتُ لا أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالأيـــا من والأيامن كالأشائم
وكذاك لا خـــير ولا شرّ على أحد بدائم
قد خطّ ذلك في الزبو ر الأوليـــات القدائم[3]

وفي شعر (عبيد بن الأبرص) إشارة الى رأي العرب في الحمامة ، فالعرب تقول : « أخرق من حمامة » ، وعبيد يقول في ذلك :

عيُّوا بأمرهـمُ كـــما عيت ببيضتهـــا الحمامة
جعلت لها عودين من نشمٍ وآخر من ثمامة

---

١ رسالة الغفران (٤٧٨)
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٧)
٣ المؤتلف والمختلف (١٠٢) ، تاج العروس (٤/٣٤) ، (خزز) ، الخزانة (٣/١١)

قال ذلك تعبيراً عن حمقها . فالنشم شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسيّ ، والثمامة نبت قصير يضرب به المثل في الضعف ، وذلك حمقها : أن تجمع بين ضعيف وقوي ، فينكسر عشها ويقع البيض فينكسر[1] .

وقد تطرق (العبّاس بن مرداس) الى ذكر (الغول) ، فقال :

أصابت العامَ رِعلاً غول قومهم وسط البيوت ولون الغول ألوان

وهو يشير بذلك الى تلون الغول[2] .

وفي شعر (زيد الخيل) اشارات الى عادة تعليق الحليّ ، وخشخشة الخلاخيل على السليم ، ليبرأ ويشفى ، اذ يقول :

أيم يكون النعل منه ضجيعه كما عُلّقت فوق السليم الخلاخل

ونجد مثل ذلك في أشعار شعراء آخرين[3] .

ومن مذاهب أهل الجاهلية المذكورة في الشعر ، أنهم كانوا يستسقون السحائب لقبور من فقدوه من أعزائهم ، ويستنبتون لمواقع حُفَرهم الزهر والرياض ، قال النابغة :

فلا زال قبر بينَ تبنى وجاسمٍ عليه من الوسمي طلٌّ ووابلُ
فينبت حَوْذاناً وعوفاً منوراً سأتبعه من خير ما قال قائل

وكانوا يجرون هذا الدعاء مجرى الاسترحام[4] .

وفي شعر بعض الشعراء أن الحياة لا تدوم ، وان المال وان كان أساس هذه الحياة ، لكنه متاع أيام وكل ذاهب . فبينما هو يجمعه ويحرص عليه ، إذا به يعيث همج هامج ، وما المال إلا عارة فاخلف وأتلف ، فكله مع الدهر ذاهب ، هذا (الحارث بن حلزة) اليشكري ، يقول :

---

١ الحيوان (٣/١٨٩) ، (حاشية رقم ٤) ، أدب الكاتب (٥٥) ، ثمار القلوب (٣٦٩) الميداني ، أمثال (١/٢٣٤) ، عيون الاخبار (١/٧٢)
٢ الحيوان (٦/١٦١) ، المعارف (٣٦)
٣ الحيوان (٤/٢٤٧ وما بعدها)
٤ أمالي المرتضى (١/٥٤)

بينا الفتى يسعى ويُسعى له تاح له من أمره خـالج
يترك ما رقّح من عيشه يعيث فيـه هيج هامج
لا تكسّع الشول بأغبارها إنك لا تدري من الناتج

وهذا تميم بن مقبل يقول :

فاخلف واتلف انما المالُ عارة وكله مع الدهر الذي هو آكله[1]

ونجد في شعر الشعراء الجاهليين ، ذم للأغنياء الذين يملكون ولا يعطون شيئاً منه للفقير والبائس والمحتاج ، وللذين يكبرون من شأن الكبير لماله ، ويبتعدون عن الفقير لفقره ، ويعظمون الغني على كثرة عيوبه ونواقصه ، لا لشيء إلا لماله وغناه ، فنرى (عروة بن الورد) ، يقول :

ذريني للغنى أسعى فإني رأيتُ الناس شرّهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهـم وان أمسى له حسب وخير
يباعده الندىّ وتزدريـه حليلتـه وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال يكـاد فؤاد صاحبه يطير
قليل عيبه والعيب جـمّ ولكنّ الغني ربٌّ غفور[2]

وللشعراء الجاهليين رأي في النساء . رأى أغلبهم ان المرأة متعة للرجل ، يلهو بها ، ويقضي حاجته منها ، خلقت للبيت وللولادة ، وهي دون الرجل . وهي تحب الشاب القوي ، والغني الكثير المال . ونجد هذا الرأي عنـد أكثر الشعراء اتصالاً بالمرأة ، وعند أكثرهم لهواً بها مثل (امرىء القيس) حيث يقول :

فيا ربّ يومٍ قد أروح مرجّلاً حبيباً الى البيض الأوانس أملسا
أراهن لا يحبين من قلّ ماله ولا من رأين الشيب فيه وقوسا[3]

---

١ البخلاء (١٦٤ وما بعدها)
٢ أمالي المرتضى (١/٥٠) ، ديوان عروة (١٩٨) ، العقد (١/٢١٢) ، (ولكن للغنى) ، وتجد اختلافا في الالفاظ وفي ترتيب الابيات حسب المراجع ، البيـان (١/٢٣٤) ، (عبد السلام محمد هارون)
٣ ديوانه (١٠٦ وما بعدها) ، رسائل الجاحظ (١/٩٨ ، ١١٤) (مفاخرة الجواري والغلمان)

ونجد الأعشى يقول :

وأرى الغواني لا يواصلن أمرءاً فقد الشباب وقد يصلن الأمردا[1]

وفي شعر علقمة بن عبدة ترديد لرأي امرىء القيس وزيادة :

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأدواء النساء طبيب
اذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس له في ودّهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب[2]

---

١ ديوانه (١٥١) ، رسائل الجاحظ (٩٨/١) ، (مفاخرة الجواري والغلمان) .
٢ ديوانه (١٣١ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٣٩/٣) ، المفضليات (١٣١ وما بعدها) ، رسائل الجاحظ (٩٩/١ ، ١١٤) ، (مفاخرة الجواري والغلمان)

obeikandl.com